11

من حكم الشيخ

الطيب الفقيه أحمد



سلسلة المطالعة المفيدة

دار اليمامة للنشر والتوزيع - تونس -

سلسلة المطالعة المفيدة

من حكم الشّيخ

النّص : الطيب الفقيه أحمد
الرّسوم : غزوة الرياحي

دار اليمامة للنشر والتوزيع

مِنَ الحِكَايَاتِ الطَّرِيفَةِ الَّتِي عَلِقَتْ بِذِهْنِي مُنْذُ حَدَاثَةِ سِنِّي وَأَتَذَكَّرُهَا بِاسْتِمْرَارٍ، هَذِهِ الحِكَايَةُ الَّتِي سَمِعْتُهَا مِنْ وَالِدِي، رَحِمَهُ اللهُ، لَمَّا كُنَّا مُجْتَمِعِينَ فِي إِحْدَى السَّهَرَاتِ العَائِلِيَّةِ اللَّطِيفَةِ قَالَ :

عَرَفْتُ الشَّيْخَ مُصْطَفَى أَحَدَ أَعْيَانِ المَدِينَةِ مُنْذُ سَنَوَاتٍ وَهُوَ رَجُلٌ نَاهَزَ الثَّمَانِينَ مِنْ عُمُرِهِ . قَضَّاهَا كُلَّهَا فِي عِبَادَةِ اللهِ وَطَاعَتِهِ. يَبْدُو عَلَيْهِ الوَقَارُ وَالهَيْبَةُ، يَحْتَرِمُهُ كُلُّ مَنْ عَرَفَهُ .

أَمَّا مَا كَانَ يَتَحَلَّى بِهِ مِنِ اسْتِقَامَةٍ وَتَوَاضُعٍ وَمَحَبَّةِ الخَيْرِ لِبَنِي جِنْسِهِ فَقَدْ جَعَلَهُ يَحْتَلُّ مَكَانَةً خَاصَّةً فِي قُلُوبِ أَهْلِ بَلْدَتِهِ. إِذْ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا كَانَ يَحُلُّ مَشَاكِلَهُمْ وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى سُبُلِ الخَيْرِ وَالفَلاَحِ.

كَيْفَ لاَ وَهُوَ الشَّيْخُ المُجَرِّبُ وَالعَالِمُ الوَرِعُ

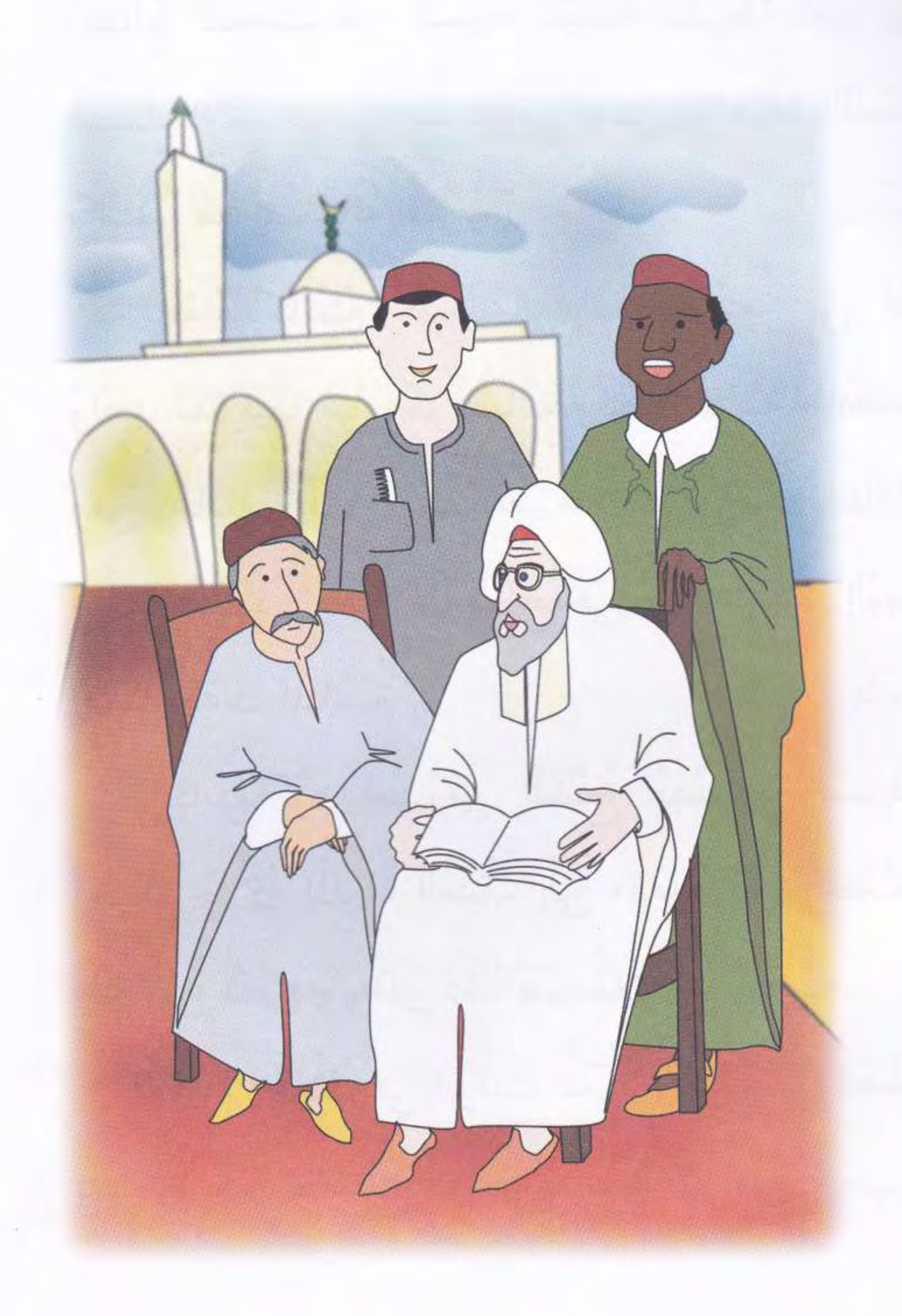
الَّذِي تَرَبَّى تَرْبِيَةً حَسَنَةً فِي بَيْتِ عِلْمٍ وَتَقْوَى.

كَانَ الشَّيْخُ مُصْطَفَى طَوِيلَ القَامَةِ، مُقَوَّسَ الظَّهْرِ، حَادَّ الأَنْفِ، غَلِيظَ الحَاجِبَيْنِ، يَضَعُ عَلَى عَيْنَيْهِ الزَّرْقَاوَيْنِ نَظَّارَاتٍ مُذَهَّبَةً.

كَمَا كَانَ يَرْتَدِي جُبَّةً أَنِيقَةً، وَيَتَلَحَّفُ بِبُرْنُسٍ أَبْيَضَ، وَيُغَطِّي رَأْسَهُ بِعِمَامَةٍ مُطَرَّزَةٍ شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنَ مَشَائِخِ العِلْمِ وَرِجَالِ القَضَاءِ.

تَعَوَّدَ أَنْ يَجْلِسَ فِي مَقْعَدٍ صَغِيرٍ وَسَطَ المَدِينَةِ قَرِيبًا مِنَ المَسْجِدِ لِيَتَسَنَّى لَهُ أَدَاءُ الصَّلَوَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا وَلَيْسَ بَعِيدًا عَنِ المَدْرَسَةِ القُرْآنِيَّةِ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ مُرَاقَبَةِ تَعَلُّمِ أَبْنَائِهِ الصِّغَارِ عَنْ كَثَبٍ.

يَقْضِي الشَّيْخُ جُلَّ أَوْقَاتِهِ فِي هَذَا المَقْعَدِ . فَتَرَاهُ تَارَةً يَتْلُو مَا تَيَسَّرَ مِنْ آيِ الذِّكْرِ الحَكِيمِ، وَأُخْرَى



يُطَالِعُ نَفَحَاتٍ مِنَ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ أَوْ سِيَرِ عُظَمَاءِ الإِنْسَانِيَّةِ . وَيَلَذُّ لَهُ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ التَّفَكُّهُ وَالتَّنَدُّرُ مَعَ أَصْدِقَائِهِ الْمُقَرَّبِينَ.

فَقَدْ كَانَتْ جَلَسَاتُهُ مَفِيدَةً وَمُمْتِعَةً فِي آنٍ وَاحِدٍ لِمَا فِيهَا مِنْ فِكَرٍ صَائِبَةٍ وَنُكَتٍ ذَكِيَّةٍ هَادِفَةٍ . وَمِنْ عَادَتِهِ أَيْضًا اسْتِضَافَةُ خِلاَّنِهِ الأَوْفِيَاءِ لِتَنَاوُلِ الطَّعَامِ عِنْدَهُ، وَهُوَ لاَ يُمَانِعُ فِي رَدِّ الزِّيَارَةِ إِلَيْهِمْ كُلَّمَا جَدَّتِ الْمُنَاسَبَةُ .

ذَاتَ يَوْمٍ اسْتَدْعَى الشَّيْخُ مُصْطَفَى صَدِيقَهُ أَحْمَدَ حَلاَّقُ الْمَدِينَةِ العَتِيقَةِ إِلَى مَقْعَدِهِ لِيَقُصَّ لَهُ مَا طَالَ مِنْ شَعْرِهِ وَيَحْلِقَ ذَقْنَهُ وَيُحَفِّفَ مِنْ شَارِبَيْهِ.

قَدِمَ الحَلاَّقُ فِي الوَقْتِ الْمُعَيَّنِ وَشَرَعَ فِي العَمَلِ بِاهْتِمَامٍ كَبِيرٍ وَالشَّيْخُ مُصْطَفَى مُطِيعٌ لأَوَامِرِهِ كَيْفَ

مَا يَشَاءُ وَتَشَاءُ الحلاقَةُ.

وَلَمَّا انْتَهَى قَالَ لَهُ الحَلاَّقُ : " نَعِيمًا يَا سَيِّدِي ".

عِنْدَ ذَلِكَ شَكَرَهُ الشَّيْخُ وَنَاوَلَهُ أَجْرَهُ وَزِيَادَةً. قَبَضَهُ الحَلاَّقُ مُبْتَهِجًا ثُمَّ جَمَعَ أَدَوَاتِهِ وَهَمَّ بِالانْصِرَافِ فِي حَالِ سَبِيلِهِ.

وَمَا إِنْ تَخَطَّى عَتَبَةَ المَقْعَدِ حَتَّى اسْتَوْقَفَهُ الشَّيْخُ بِقَوْلِهِ :

- انْتَظِرْ يَا أَحْمَدُ. بِاللهِ عَلَيْكَ، قُلْ لِي كَمِ السَّاعَةُ الآنَ ؟

فَأَجَابَهُ الحَلاَّقُ بَعْدَ أَنْ تَأَكَّدَ مِنَ الوَقْتِ فِي سَاعَتِهِ اليَدَوِيَّةِ قَائلاً :

- إِنَّهُ مُنْتَصَفُ النَّهَارِ . إِذَنْ حَانَ وَقْتُ الغَدَاءِ.

أَيْنَ سَتَذْهَبُ الآنَ ؟

- سَأَرْجِعُ إِلَى دُكَّانِي لأَضَعَ هَذِهِ الحَقِيبَةَ ثُمَّ أَعُودُ إِلَى مَنْزِلِي لِتَنَاوُلِ الطَّعَامِ .

- مَاذَا اشْتَرَيْتَ لِفَطُورِكَ ؟

- فِي الحَقِيقَةِ لَمْ أَشْتَرِ اليَوْمَ شَيْئًا، إِنَّمَا طَلَبْتُ مِنْ زَوْجَتِي أَنْ تُعِدَّ لَنَا شَكْشُوكَةً مَلِيحَةً.

- شَكْشُوكَةٌ. يَا لَهَا مِنْ أُكْلَةٍ شَهِيَّةٍ. إِنَّهَا مِنْ أَلَذِّ الأَطْعِمَةِ عِنْدِي، فَهَلْ تَسْمَحُ لِي بِالغَدَاءِ مَعَكَ ؟

- بِكُلِّ سُرُورٍ. لَكِنْ ...

- لاَ، لاَ تَقُلْ شَيْئًا. إِنِّي أُحِبُّ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الطَّعَامِ.

- سَيِّدِي المُحْتَرَمُ، بِوِدِّي أَنْ تُؤَجِّلَ زِيَارَتَكَ إِلَيْنَا فِي فُرْصَةٍ أُخْرَى حَتَّى نُعِدَّ مَا يُنَاسِبُ مَقَامَكَ

مِنَ الأَطْعِمَةِ.

- إِنِّي مُصَمِّمٌ عَلَى مُرَافَقَتِكَ لآكُلَ مِنْ هَذِهِ الشَّكْشُوكَةِ .

- طَيِّبْ. مَا دُمْتَ تَرْغَبُ فِي ذَلِكَ فَأَنَا لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُخَالِفَ لَكَ أَمْرًا.

طَلَبَ الشَّيْخُ مِنْ صَدِيقِهِ أَنْ يَتَفَقَّدَ دُكَّانَهُ وَيَضَعَ أَدَوَاتِهِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ لِمُرَافَقَتِهِ.

وَبَعْدَ لَحَظَاتٍ حَضَرَتْ عَرَبَةُ الشَّيْخِ الَّتِي كَانَ يَسْتَعْمِلُهَا فِي تَنَقُّلاَتِهِ، يَقُودُهَا الْعَمُّ سَعْدُونُ - أَوْ " أَسْمَرَ اللَّوْنِ " كَمَا كَانَ يُلَقِّبُهُ الجِيرَانُ - هَذَا الخَادِمُ الأَمِينُ الَّذِي تَرَبَّى فِي بَيْتِ الشَّيْخِ مُصْطَفَى مُنْذُ الصِّغَرِ.

جَاءَ الحَلاَّقُ فَرَكِبَ مَعَ الشَّيْخِ، وَسَارَتْ بِهِمَا

العَرَبَةُ فِي اتِّجَاهِ مَنْزِلِ المُضَيِّفِ. وَلَمَّا وَصَلاَهُ نَزَلاَ وَدَخَلاَ... مَكَثَ الشَّيْخُ فِي السَّقِيفَةِ يَنْتَظِرُ، فِي حِينِ أَسْرَعَ الحَلاَّقُ إِلَى زَوْجَتِهِ لِيُخْبِرَهَا بِالمَوْضُوعِ.

فَرِحَتِ الزَّوْجَةُ بِهَذِهِ الزِيَارَةِ المُفَاجِئَةِ لأَنَّهَا شَرَفٌ نَالَ العَائِلَةَ رَغْمَ أَنَّ طَعَامَ ذَلِكَ اليَوْمِ لَمْ يَكُنْ فَاخِرًا. وَرَاحَتْ عَلَى عَجَلٍ تُعِدُّ المَائِدَةَ.

كَانَ الضَّيْفُ طِيلَةَ فَتْرَةِ الانْتِظَارِ يَتَأَمَّلُ كُلَّ شَيْءٍ حَوْلَهُ... فَلَفَتَ انْتِبَاهَهُ نَظَافَةُ البَيْتِ وَحُسْنُ تَرْتِيبِهِ.

وَلَمَّا أَحْضَرَتِ الزَّوْجَةُ المَائِدَةَ دَعَا الحَلاَّقُ ضَيْفَهُ إِلَى التَّحَوُّلِ إِلَى غُرْفَةِ الطَّعَامِ، فَوَجَدَهَا قَدْ فُرِشَتْ بِبُسُطٍ لَيِّنَةٍ وَجُلُودِ أَكْبَاشٍ نَظِيفَةٍ .



أُعْجِبَ الشَّيْخُ بِهَذَا المَشْهَدِ الَّذي أَدْخَلَ عَلَيْهِ سُرُورًا كَبِيرًا خَاصَّةً وَأَنَّهَا أَوَّلُ زِيَارَةٍ يُؤَدِّيهَا إِلَى مَنْزِلِ صَدِيقِهِ أَحْمَدَ مِنْ دُونِ سَابِقِ عِلْمٍ .

كَانَ الطَّعَامُ شَكْشُوكَةً كَمَا قَالَ صَاحِبُهُ، تَنْبَعِثُ مِنْهَا رَائِحَةٌ ذَكِيَّةٌ قُسِّمَتْ فِيهَا بَعْضُ بَيْضَاتٍ، وَأُضِيفَ إِلَيْهَا قَلِيلٌ مِنَ القَدِّيدِ، أَمَّا الخُبْزُ فَكَانَ أَرْغِفَةً سَخِنَةً أَعَدَّتْهَا الزَّوْجَةُ مُنْذُ قَلِيلٍ .

حَانَ وَقْتُ الغَدَاءِ فَقَالَ الحَلاَّقُ مُخَاطِبًا ضَيْفَهُ المُبَجَّلَ :

– عَلَى بَرَكَةِ اللهِ تَفَضَّلْ. وَاللهِ أَنَا خَجِلٌ، أَتَمَنَّى أَنْ يُعْجِبَكَ هَذَا الطَّعَامُ. فَأَجَابَهُ الشَّيْخُ مُصْطَفَى مُبْتَسِمًا :

– لاَ يَا أَحْمَدُ. أَنَا مُبْتَهِجٌ لِهَذِهِ الزِّيَارَةِ الَّتِي

أَرَدْتُهَا أَنْ تَتِمَّ هَكَذَا حَتَّى لاَ أُكَلِّفَكَ أَيَّ جُهْدٍ. وَتَيَقَّنْ أَنِّي سَأَجِدُ الطَّعَامَ لَذِيذًا وَسَوْفَ آكُلُ مِنْهُ بِشَاهِيَةٍ هَيَّا نَأْكُلْ يَا رَجُلُ فَقَدْ اشْتَدَّ بِيَ الجُوعُ .

وَمَا إِنِ التَهَمَ الشَّيْخُ بَعْضَ اللُّقَمِ حَتَّى قَالَ :

– اللّٰهَ، اللّٰهَ. مَا أَلَذَّ هَذَا الطَّعَامَ!

فَرَدَّ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ قَائِلاً :

– الحَمْدُ للهِ أَنْ قَدْ أَعْجَبَكَ. فَكُلْ هَنِيئًا. ذَاكَ مَا نُرِيدُ.

أَكَلَ الشَّيْخُ حَتَّى شَبِعَ. وَلَمَّا انْتَهَى حَمَدَ اللّٰهَ وَغَسَلَ يَدَيْهِ. ثُمَّ تَمَدَّدَ عَلَى بِسَاطٍ كَانَ بِالقُرْبِ مِنْهُ فِي انْتِظَارِ كَأْسِ الشَّايِ الْمُنَعْنَعِ. آنَ وَقْتُ الخُرُوجِ فَوَدَّعَ الشَّيْخُ مُصْطَفَى صَدِيقَهُ أَحْمَدَ شَاكِرًا لَهُ حُسْنَ الْقَبُولِ وَكَرَمَ الضِّيَافَةِ.

رَكِبَ الشَّيْخُ عَرَبَتَهُ وَقَصَدَ مَنْزِلَهُ. وَلَمَّا وَصَلَهُ تَوَجَّهَ إِلَى زَوْجَتِهِ لِيُخْبِرَهَا بِمَا رَأَى فِي بَيْتِ الحَلاَّقِ مِنْ نَظَافَةٍ وَتَرْتِيبٍ وَمَا أَكَلَ عِنْدَهُ مِنْ طَعَامٍ لَذِيذٍ.

سُرَّتِ الزَّوْجَةُ بِهَذِهِ الضِّيَافَةِ وَشَكَرَتْ لِلْحَلاَّقِ حُسْنَ صَنِيعِهِ دَاعِيَةً اللّهَ أَنْ يُجَازِيهِ خَيْرًا. ثُمَّ طَلَبَتْ مِنْ زَوْجِهَا اسْتِضَافَتَهُ فِي فُرْصَةٍ قَادِمَةٍ.

بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ اسْتَدْعَى الشَّيْخُ مُصْطَفَى صَدِيقَهُ لِلْغَدَاءِ عِنْدَهُ، فَقَبِلَ الحَلاَّقُ الدَّعْوَةَ بِكُلِّ امْتِنَانٍ.

وَفِي المَوْعِدِ المُحَدَّدِ حَضَرَ الحَلاَّقُ وَتَوَجَّهَ مَعَ مُضَيِّفِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ. وَمَا إِنْ دَخَلَهُ وَاجْتَازَ بَهْوَهُ الفَسِيحَ حَتَّى أَدْهَشَهُ مَا رَأَى. فَقَدْ كَانَتْ تُحِيطُ بِوَسَطِ الدَّارِ حُجُرَاتٌ كَثِيرَةٌ لاَ تُرَى فِيهَا إِلاَّ ثُرَيَّاتٍ لاَمِعَةً وَأَثَاثًا بَدِيعًا وَسَتَائِرَ حَرِيرِيَّةً وَصُوَرًا جَمِيلَةً...


الله

حَضَرَ الغَدَاءُ فَأَسْرَعَ الخَدَمُ إِلَى نَصْبِ المَائدَةِ، ثُمَّ وَضَعُوا عَلَيْهَا أَنْوَاعًا مِنَ الأَطْعِمَةِ الفَاخِرَةِ، وَأَصْنَافًا مِنَ الفَوَاكِهِ وَالغِلاَلِ.

دَخَلَ الحَلاَّقُ حُجْرَةَ الطَّعَامِ وَجَالَ بِبَصَرِهِ عَلَى المَائدَةِ فَسَالَ لُعَابُهُ وَاشْتَاقَتْ نَفْسُهُ للأَكْلِ مِمَّا وُضِعَ عَلَيْهَا مِنَ اللُّحُومِ وَالأَسْمَاكِ وَالبَيْضِ وَالخُضَرِ وَالغِلاَلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَلَمَّا دُعِيَ للأَكْلِ تَقَدَّمَ إِلَى المَائدَةِ وَشَرَعَ يَأْكُلُ بِشَرَاهَةٍ وَنَهَمٍ حَتَّى شَبِعَ. عِنْدَ ذَلِكَ حَمْدَلَ وَشَكَرَ لِلشَّيْخِ جُودَهُ وَكَرَمَهُ. وَبَعْدَ أَن اسْتَرَاحَ قَلِيلاً اسْتَأْذَنَ فِي الانْصِرَافِ لَكِنَّ الشَّيْخَ طَلَبَ أَنْ يَنْتَظِرَهُ قَلِيلاً.

خَرَجَ الشَّيْخُ مُصْطَفَى وَلَمْ يَغِبْ طَوِيلاً ثُمَّ عَادَ وَمَعَهُ آنِيَةٌ مِنَ الفَخَّارِ تُشْبِهُ القُلَّةَ مَسْدُودَةٌ سَلَّمَهَا إِلَى ضَيْفِهِ قَائِلاً :

- خُذْ يَا صَدِيقِي هَذِهِ هَدِيَّةٌ لَكَ.

قَبِلَ الحَلاَّقُ الهَدِيَّةَ مُبْتَهِجًا رَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ مَا بِهَا، ثُمَّ وَدَّعَ الشَّيْخَ وَخَرَجَ. كَانَ فِي الطَّرِيقِ يَحُثُّ السَّيْرَ لِيَصِلَ إِلَى بَيْتِهِ وَيُعْلِمَ زَوْجَتَهُ بِضِيَافَتِهِ عِنْدَ الشَّيْخِ مُصْطَفَى وَيُطْلِعُهَا عَلَى الهَدِيَّةِ الَّتِي تَسَلَّمَهَا مِنْهُ.

وَصَلَ أَحْمَدُ إِلَى مَنْزِلِهِ وَلَمَّا دَخَلَهُ أَخَذَ يَصِيحُ :

- يَا امْرَأَةُ، تَعَالَيْ انْظُرِي إِنَّهَا هَدِيَّةٌ. بَارَكَ اللهُ فِيهِ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ !

سَمِعَتِ الزَّوْجَةُ زَوْجَهَا يَتَكَلَّمُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ، وَقَدْ كَانَتْ مُنْشَغِلَةً بِبَعْضِ الشُّؤُونِ، فَخَرَجَتْ مُهَرْوِلَةً وَهِيَ تَقُولُ :

– مَا بِكَ يَا رَجُلُ ؟ مَا بَالُكَ تَتَحَدَّثُ هَكَذَا ؟ مَا لِي أَرَاكَ مُرْتَبِكًا. أَخْبِرْنِي بِمَا وَقَعَ...

أَعْلَمَ الحَلاَّقُ زَوْجَتَهُ بِحَقِيقَةِ الأَمْرِ، وَقَدَّمَ إِلَيْهَا الهَدِيَّةَ. فَنَظَرَتْ إِلَيْهَا شَزَرًا لَكِنَّهَا لَمَّا أَمْسَكَتْهَا بِكِلْتَا يَدَيْهَا وَجَدَتْهَا ثَقِيلَةً. وَبِخِفَّةٍ كَشَفَتْ عَنْهَا الغِطَاءَ فَأَبْهَرَهَا مَا رَأَتْ. وَقْتَئِذٍ صَاحَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا :

– مَا هَذَا يَا أَحْمَدُ ؟ إِنَّهُ كَنْزٌ !

أَفْرَغَتِ الآنِيَةَ عَلَى الأَرْضِ فَإِذَا بِهَا قِطَعٌ ذَهَبِيَّةٌ تَتَنَاثَرُ...



- إِنَّهُ ذَهَبٌ خَالِصٌ، اُنْظُرْ مَا أَحْسَنَهُ، شُكْرًا لِلشَّيْخِ مُصْطَفَى، كَثَّرَ اللَّهُ مِنْ أَمْثَالِهِ، وَزَادَ فِي رِزْقِهِ. حَقِيقَةً إِنَّهُ رَجُلٌ كَرِيمٌ.

- ذَهَبَ الحَلاَّقُ إِلَى عَمَلِهِ بَعْدَ اسْتِرَاحَةٍ قَصِيرَةٍ وَهُوَ يَكَادُ يَطِيرُ مِنَ الفَرَحِ. أَمَّا زَوْجَتُهُ فَقَدْ عَادَتْ إِلَى الذَّهَبِ تُقَلِّبُهُ وَتَتَأَمَّلُهُ وَتَعُدُّهُ قِطْعَةً قِطْعَةً. لَقَدْ مَلَكَ عَلَيْهَا إِعْجَابَهَا وَظَلَّتْ تَتَعَهَّدُهُ بَيْنَ الفَيْنَةِ وَالأُخْرَى وَتَتَمَنَّى أَنْ لَوْ كَانَ عِنْدَهَا كَثِيرٌ مِنْهُ فَتُصْبِحَ مِنَ الأَغْنِيَاءِ المُوسِرِينَ.

صَارَتِ الزَّوْجَةُ مُنْذُ ذَلِكَ الحِينِ لاَ تُفَكِّرُ إِلاَّ فِي الذَّهَبِ وَالحُصُولِ عَلَيْهِ، وَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا :

- لِمَاذَا لاَ أَصِيرُ غَنِيَّةً تَمْلأُ شُهْرَتِي الآفَاقَ مِثْلَ سَائِرِ أَرْبَابِ الثَّرَاءِ ؟ مِنَ الآنَ سَأُنَقِّصُ مِنَ المَصَارِيفِ



وَأَدَّخِرُ الأَمْوَالَ وَأَشْتَرِي بِمَا يَتَجَمَّعُ عِنْدِي ذَهَبًا أُضِيفُهُ إِلَى مَا فِي الآنِيَةِ حَتَّى تَمْتَلِئَ. وَهَكَذَا أَحْصُلُ عَلَى ثَرْوَةٍ كَبِيرَةٍ تَجْعَلُنِي مَشْهُورَةً بَيْنَ النَّاسِ.

عَادَ الحَلاَّقُ فِي المَسَاءِ إِلَى مَنْزِلِه. وَبَعْدَ أَنْ تَعَشَّى جَلَسَ لِلسَّمَرِ، وَفِي الأَثْنَاءِ قَالَتْ لَهُ زَوْجَتُهُ :

– يَا رَجُلُ يَبْدُو أَنَّ الذَّهَبَ الَّذِي أَهْدَاهُ لَنَا الشَّيْخُ مُصْطَفَى ثَمِينٌ جِدًّا لَكِنَّ الآنِيَةَ نَاقِصَةٌ. فَمَا رَأْيُكَ لَوِ اتَّصَلْتَ بِهِ وَطَلَبْتَ مِنْهُ بَعْضَ القِطَعِ الأُخْرَى نُضِيفُهَا إِلَيْهَا فَتُصْبِحَ مَلأَى. فَالشَّيْخُ غَنِيٌّ وَغَنِيٌّ جِدًّا، فَمَا ضَرَّهُ لَوْ أَكْمَلَهَا.

غَضِبَ الزَّوْجُ وَفِي حَالَةِ انْفِعَالٍ أَجَابَهَا :

– كَلاَّ. مَا هَذَا الكَلاَمُ ؟ عَيْبٌ عَلَيْكِ أَنْ تُفَكِّرِي فِي مِثْلِ هَذِهِ الأَشْيَاءِ. أَلاَ تَعْلَمِينَ أَنَّهَا هَدِيَّةٌ

فَكَيْفَ نَطْلُبُ لَهَا بَقِيَّةً ؟ دَعِي عَنْكِ هَذَا الوَسْوَاسَ وَاحْمَدِي اللهَ عَلَى مَا نَحْنُ فِيهِ.

اغْتَاظَتِ الزَّوْجَةُ لِأَنَّ كَلامَ زَوْجِهَا لَمْ يُعْجِبْهَا فَقَالَتْ :

- إِذَنْ مَا قَوْلُكَ لَوْ نَقْتَصِدُ فِي المَصَارِيفِ أَكْثَرَ، وَكُلَّمَا وَفَّرْنَا نَصِيبًا مِنَ المَالِ اشْتَرَيْنَا بِهِ ذَهَبًا نَزِيدُهُ إِلَى الآنِيَةِ حَتَّى تَمْتَلِئَ. وَبِذَلِكَ يَنْمُو رِزْقُنَا وَيَكْثُرُ خَيْرُنَا وَتَنْتَشِرُ سُمْعَتُنَا.

- قُلْتُ لَكِ اتَّقِي اللهَ. فَنَحْنُ نَعْمَلُ وَنَكِدُّ لِنَكْسِبَ قُوتَنَا، وَلَنَا مَدْخُولٌ نَسْتَطِيعُ بِوَاسِطَتِهِ تَسْدِيدَ نَفَقَاتِنَا. الحَمْدُ للهِ عَلَى حَالِنَا. وَعَيْشُنَا كِفَايَةٌ. لَسْنَا فِي احْتِيَاجٍ وَلَيْسَ لَنَا مَالٌ وَفِيرٌ نَخْزِنُهُ أَوْ نُبَذِّرُهُ .

- يَا لَكَ مِنْ رَجُلٍ بَسِيطٍ. أَنْتَ لاَ تُفَكِّرُ فِي

المُسْتَقْبَلِ وَلَمْ تَقْرَأْ حِسَابًا لِمَصَائِبِ الدَّهْرِ. إِنَّكَ تَعِيشُ لِيَوْمِكَ قَانِعًا بِمَا تَتَحَصَّلُ عَلَيْهِ مِنْ رِزْقٍ. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الاحْتِفَاظَ بِالقِرْشِ الأَبْيَضِ ضَرُورَةٌ مُتَحَتِّمَةٌ لِلْيَوْمِ الأَسْوَدِ.

– أَرْجُوكَ، اِطْوِي عَنَّا هَذِهِ الصَّفْحَةَ وَدَعِينَا مِنَ الكَلاَمِ الفَارِغِ.

– كَلاَمٌ فَارِغٌ. طَيِّب، سَوْفَ لَنْ أُحَدِّثَكَ فِي هَذَا المَوْضُوعِ أَبَدًا.

تَظَاهَرَتِ الزَّوْجَةُ بِالاقْتِنَاعِ لَكِنَّهَا مُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ، طَفِقَتْ تُنْقِصُ مِنَ المَصَارِيفِ اليَوْمِيَّةِ إِلَى دَرَجَةِ الإِخْلاَلِ وَالإِجْحَافِ حَتَّى أَثَّرَتْ عَلَى حَيَاتِهَا وَغَيَّرَتْ حَالَهَا . لأَنَّهَا أَصْبَحَتْ تُقَتِّرُ فِي النَّفَقَةِ لاَ هَمَّ لَهَا إِلاَّ تَوْفِيرُ المَالِ وَلَوْ أَدَّى بِهَا الحَالُ إِلَى إِهْمَال

الأَشْيَاءِ الضَّرُورِيَّةِ .

وَلَمْ تَمْضِ مُدَّةٌ طَوِيلَةٌ حَتَّى شَعَرَ الزَّوْجُ بِهَذَا التَّحَوُّلِ، وَأَحَسَّ بِالضِّيقِ مِنْ جَرَّاءِ التَّصَرُّفِ الْمُشِينِ الَّذِي تَتَبِعُهُ زَوْجَتُهُ. وَبَدَأَ الخِلاَفُ يَدُبُّ بَيْنَهُمَا وَاسْتَوْلَى القَلَقُ وَالحَيْرَةُ عَلَى الزَّوْجِ .

لاَحَظَ الشَّيْخُ مُصْطَفَى أَنَّ صَدِيقَهُ الحَلاَّقُ تَغَيَّرَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ فِي السَّابِقِ سَوَاءٌ فِي هَيْئَتِهِ أَوْ حَتَّى فِي كَلاَمِهِ. وَصَارَ يُفَكِّرُ فِي أَمْرِهِ مُتَسَائِلاً :

- مَا الَّذِي حَدَثَ حَتَّى تَغَيَّرَ ؟ تُرَى هَلْ أَصَابَهُ سُوءٌ؟ هَلْ تَكُونُ الْهَدِيَّةُ سَبَبًا فِي هَذَا الاضْطِرَابِ ؟ يَجِبُ أَنْ أَعْرِفَ الحَقِيقَةَ .

ظَلَّ الشَّيْخُ مُصْطَفَى يُرَاقِبُ صَدِيقَهُ أَحْمَدَ أَيَّامًا وَلَيَالِيَ وَيَتَتَبَّعُ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ. فَتَأَكَّدَ أَنَّهُ عَلَى غَيْرِ

عَادَته وَأَنَّ لَدَيْه مَوْضُوعًا يَشْغَلُهُ وَيُحَيِّرُهُ .

وَلَمَّا حَضَرَ لَدَيْه فِي أَحَد الأَيَّامِ أَرَادَ أَنْ يُفَاتحَهُ فِي المَسْأَلَة لَكنَّ الْحَلاَّقَ كَانَ قَلقَ النَّفْسِ يَبْتَعدُ فِي كَلاَمه عَنِ الوَاقِعِ حَتَّى لاَ يَنْكَشفَ أَمْرُهُ.

وَفِي مُنَاسَبَة أُخْرَى سَأَلَهُ الشَّيْخُ عَنْ طَعَامه فِي ذَلكَ اليَوْمِ. فَأَعْلَمَهُ الحَلاَّقُ بِأَنَّهُ شَكْشُوكَةٌ كَالعَادَة. عنْدَ ذَلكَ وَجَدَ الشَّيْخُ الفُرْصَةَ سَانحَةً للدُّخُولِ مَعَهُ فِي الحَديث، فَقَالَ :

- إِنِّي سَأَفْطُرُ مَعَكَ يَا أَحْمَدُ فَأَجَابَهُ الحَلاَّقُ وَقَدْ بَدَا عَلَيْه التَّأَثُّرُ :

- طَلَبُكَ غَالٍ عَلَيْنَا يَا شَيْخَنَا العَزِيزَ. لَكنِّي أَعْتَذرُ هَذه المَرَّةَ لأَنَّ لِي شُؤُونًا مُتَأَكِّدَةً يَجِبُ أَنْ أَقْضِيَهَا وَرُبَّمَا لاَ أَرْجِعُ إِلَى المَنْزِلِ إِلاَّ مُتَأَخِّرًا .



– لاَ أَنَا قُلْتُ لَكَ : أُرِيدُ أَنْ آكُلَ الشَّكْشُوكَةَ مَعَكَ مَرَّةً أُخْرَى. أَرَأَيْتَ إِنَّهَا أَعْجَبَتْنِي فِي المَرَّةِ الفَائِتَةِ وَأَكَلْتُ مِنْهَا بِشَهِيَّةٍ لَمْ أَعْهَدْهَا مِنْ قَبْلُ .

– تَفَضَّلْ سَيِّدِي إِنْ عَزَمْتَ عَلَى ذَلِكَ.

وَفِي الوَقْتِ المُعَيَّنِ ذَهَبَ الشَّيْخُ مُصْطَفَى إِلَى مَنْزِلِ صَدِيقِهِ. وَلَمَّا دَخَلَهُ لاَحَظَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ تَغَيَّرَ : فَالأَثَاثُ مُبَعْثَرٌ هُنَا وَهُنَاكَ، وَالأَوْسَاخُ مُتَرَاكِمَةٌ فِي كُلِّ جِهَةٍ، وَالغُبَارُ مُتَنَاثِرٌ فِي الزَّوَايَا. حَتَّى الطَّعَامُ تَبَدَّلَ : شَكْشُوكَةٌ مَطْبُوخَةٌ مِنْ دُونِ بَيْضٍ وَلاَ قَدِّيدٍ لَيْسَ لَهَا رَائِحَةٌ، وَالخُبْزُ كِسْرَاتٌ يَابِسَةٌ .

تَأَسَّفَ الشَّيْخُ وَتَحَقَّقَ أَنَّ فِي المَسْأَلَةِ سِرًّا لاَ بُدَّ مِنِ اكْتِشَافِهِ. تَنَهَّدَ تَنْهِيدَةً طَوِيلَةً ثُمَّ قَالَ لِصَدِيقِهِ أَحْمَدُ :

- يَا أَحْمَدُ. مَالِي أَرَاكَ مُضْطَرِبًا، مَاذَا أَصَابَكَ، وَمَا دَهَاكَ ؟ قُلْ لِي مَا جَرَى ؟ أَخْبِرْنِي بِالحَقِيقَةِ.

امْتَنَعَ الحَلاَّقُ فِي البِدَايَةِ عَنْ مُصَارَحَتِهِ لَكِنَّهُ اضْطُرَّ إِلَى إِعْلاَمِهِ بِالمَوْضُوعِ، لأَنَّهُ يَعْلَمُ عِلْمَ اليَقِينِ أَنَّ صَاحِبَهُ يُكِنُّ لَهُ المَحَبَّةَ وَالخَيْرَ، وَأَنَّهُ سَوْفَ لَنْ يَبْخَلَ عَلَيْهِ بِالرَّأْيِ السَّدِيدِ وَالحَلِّ الرَّشِيدِ لِلْمُشْكِلِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ. فَقَالَ مُتَحَسِّرًا وَقَدْ اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ بِالدُّمُوعِ :

- سَيِّدِي الفَاضِلُ. إِنَّ زَوْجَتِي مُنْذُ أَنْ تَسَلَّمَتْ هَدِيَّتَكَ تَكَالَبَتْ عَلَى جَمْعِ المَالِ، وَصَارَتْ لاَ تُفَكِّرُ إِلاَّ فِي ذَلِكَ بِكُلِّ مَا أُوتِيتْ مِنْ قُوَّةٍ. وَهِيَ تَنْوِي أَنْ تَشْتَرِيَ بِمَا تُوَفِّرُهُ ذَهَبًا لِتَمْلأَ بِهِ الآنِيَةَ النَّاقِصَةَ .

- عَجَبًا، وَصَلَ بِهَا التَّفْكِيرُ إِلَى هَذَا الحَدِّ، سَامَحَهَا اللهُ.

- الأَغْرَبُ مِنْ هَذَا أَنَّهَا أَصَرَّتْ عَلَى الحُصُولِ عَلَى أَوَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ لِتُصْبِحَ مِنَ الأَثْرِيَاءِ.

- لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ.

- صَدَقَ حَدْسُ الشَّيْخِ الفَطِنِ إِذْ أَنَّهُ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الذَّهَبَ هُوَ الَّذِي أَفْسَدَ عَلَى صَدِيقِهِ حَيَاتَهُ، وَأَنَّ زَوْجَتَهُ أَهْمَلَتْ، مِنْ أَجْلِهِ، شُؤُونَ البَيْتِ وَالاعْتِنَاءِ بِصَاحِبِهِ.

تَذَوَّقَ الشَّيْخُ الطَّعَامَ فَلَمْ يُعْجِبْهُ. لِذَلِكَ لَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً. ثُمَّ طَلَبَ مِنَ الحَلاَّقِ أَنْ يُحْضِرَ لَهُ الآنِيَةَ الَّتِي كَانَ سَلَّمَهَا لَهُ. فَأَحْضَرَهَا فِي الحَالِ، وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ تَظُنُّ أَنَّ الشَّيْخَ سَيَمْلَؤُهَا بِإِضَافَةِ

بَعْضِ القِطَعِ الأُخْرَى وَيُرِيحُهَا مِنْ عَنَاءِ الاقْتِصَادِ وَالادِّخَارِ .

تَنَاوَلَ الشَّيْخُ الآنِيَةَ وَخَرَجَ عَابِسًا، وَقَدْ رَغِبَ مِنْ صَدِيقِهِ أَنْ يُقَابِلَهُ فِي المَسَاءِ.

احْتَارَ الحَلاَّقُ فِي أَمْرِهِ لأَنَّهُ لاَحَظَ الانْفِعَالَ بَادِيًا عَلَى وَجْهِ الشَّيْخِ مُصْطَفَى. زِدْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَأْكُلْ مِنَ الشَّكْشُوكَةِ الَّتِي يُحِبُّهَا كَمَا أَكَلَ فِي المَرَّةِ الأُولَى.

التَقَى الشَّيْخُ بِالحَلاَّقِ فِي المَسَاءِ فَبَادَرَهُ بِقَوْلِهِ :

– يَا أَحْمَدُ. عَرَفْتُ أَنَّ الذَّهَبَ كَانَ سَبَبًا فِي إِفْسَادِ حَالَتِكَ، وَهُوَ الَّذِي غَيَّرَ مَجْرَى حَيَاةِ زَوْجَتِكَ. لِذَا فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَائِدَتِكَ أَنْ يَبْقَى عِنْدَكَ. لأَنَّ الذَّهَبَ يُصِيبُ الضَّمَائِرَ بِالصَّدَإِ خَاصَّةً مَعَ مَنْ لاَ

يَعْرِفُ كَيْفَ يَصْرِفُهُ. لِهَذَا قَرَّرْتُ أَنْ أَسْتَرْجِعَ ذَهَبِي وَأَحْتَفِظَ بِهِ عِنْدِي. قُلْ لِي :

- هَلْ زِدْتَ عَلَيْه، أَمْ نَقَّصْتَ مِنْهُ ؟

فَأَجَابَ الحَلاَّقُ مُتَلَعْثِمًا :

- أَظُنُّ أَنَّ زَوْجَتِي لَمْ تُنْقِصْ مِنْهُ شَيْئًا، إِنَّمَا يَبْدُو لِي أَنَّهَا زَادَتْ عَلَيْهِ قِطْعَةً أَوْ قِطْعَتَيْنِ طِيلَةَ المُدَّةِ المُنْصَرِمَةِ.

أَفْرَغَ الشَّيْخُ الذَّهَبَ مِنَ الآنِيَةِ وَأَرْجَعَ لِلْحَلاَّقِ قِطْعَتَيْنِ يَظْهَرُ أَنَّهُمَا لَيْسَتَا كَالبَقِيَّةِ ثُمَّ قَالَ :

- لاَ أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ سَبَبًا فِي الشَّرِّ بِوَاسِطَةِ هَذَا الذَّهَبِ، فِي حِينِ أَنِّي قَصَدْتُ التَّوْسِعَةَ عَلَيْكَ. لَكِنَّ زَوْجَتَكَ خَيَّبَتْ ظَنِّي.

اِعْتَذَرَ أَحْمَدُ لِلشَّيْخِ الحَكِيمِ عَمَّا وَقَعَ قَائِلاً :

- حَقيقَةً لَقَدْ أَضَرَّتْني زَوْجَتي بِهَذَا السُّلُوك، وَكَانَ الذَّهَبُ سَبَبًا في كُلِّ مَا حَدَث. فَلْيَبْقَ عِنْدَكَ، يَرْحَمُكَ اللهُ، لأَسْتَريحَ مِنَ الحَيْرَةِ وَالضِّيقِ، وَلَعَلَّ السَّعَادَةَ تَعُودُ إِلَى البَيْت.

- صَحِيحٌ مَا قُلْتَ يَا أَحْمَدُ، سَأَسْتَرْجِعُ ذَهَبِي وَلَكِنِّي سَأُعَوِّضُهُ لَكَ بِمَا هُوَ أَثْمَنُ وَأَحْسَنُ حَتَّى يَدُرَّ عَلَيْكَ أَرْبَاحًا كَثِيرَةً.

- كَيْفَ ذَلِكَ يَا حَضْرَةَ المُحْتَرَمِ ؟ وَهَلْ ثَمَّةَ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنَ الذَّهَبِ وَأَثْمَنُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ؟

- لاَ تَغْلطْ يَا أَحْمَدُ. إِنَّكَ رَجُلٌ طَيِّبُ القَلْبِ صَادِقَ النِّيَّة. أَلَيْسَ العَمَلُ أَعَزَّ شَيْءٍ فِي الحَيَاة ؟ اسْتَمِعْ إِلَيَّ جَيِّدًا : إِنِّي سَأَتَوَلَّى إِصْلاَحَ دُكَّانكَ وَأُوَسِّعُهُ، ثُمَّ أَشْتَرِي لَكَ آلاَتِ حِلاَقَةٍ حَدِيثَةً،

وَأَجْلِبُ لَكَ صُنَّاعًا مَاهِرِينَ يُسَاعِدُونَكَ فِي الشُّغْلِ، وَعِنْدَهَا يُقْبِلُ عَلَيْكَ الزَّبَائِنُ وَتَحْصُلُ عَلَى أَرْبَاحٍ وَفِيرَةٍ فَتَتَحَسَّنُ وَضْعِيَّتُكَ المَالِيَّةُ وَتَعِيشُ فِي أَرْغَدِ عَيْشٍ...

وَكَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ وَتَحَوَّلَ الدُّكَّانُ البَسِيطُ إِلَى قَاعَةِ حِلاَقَةٍ عَصْرِيَّةٍ مُؤَثَّثَةٍ مُجَهَّزَةٍ. فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الحُرَفَاءُ إِقْبَالاً كَبِيرًا، وَلَمْ تَمْضِ إِلاَّ أَشْهُرٌ قَلِيلَةٌ حَتَّى ذَاعَ صِيتُ الحَلاَّقِ أَحْمَدُ وَكَثُرَتْ أَرْبَاحُهُ.

تَحَسَّنَتْ حَالُ الحَلاَّقِ، وَنَدِمَتْ زَوْجَتُهُ عَلَى مَا صَدَرَ مِنْهَا فَعَدَّلَتْ مِنْ سُلُوكِهَا مُعْتَرِفَةً :" أَنَّ القَنَاعَةَ كَنْزٌ لاَ يَفْنَى"، وَأَنَّ ادِّخَارَ الرِجَالِ خَيْرٌ مِنِ ادِّخَارِ المَالِ.

وَعَاشَ الزَّوْجَانِ بَقِيَّةَ حَيَاتِهِمَا فِي هَنَاءٍ وَسَعَادَةٍ،



3858 - 2989 -

كُلُّ ذَلِكَ بِفَضْلِ مُسَاعَدَةِ الشَّيْخِ مُصْطَفى وحِكْمَتِه البَالِغَةِ : " نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ ".

هَذِهِ حِكْمَةٌ مِنْ حِكَمِ الشَّيْخِ الَّتِي أَصْبَحَ يُرَدِّدُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ يَقَعُ التَّعَرُّضُ فِيهَا إِلَى العَمَلِ وَشَرَفِه.

انتهى طبع هذا الكتاب
بمطبعة توب للطباعة
10 000 نسخة
مارس 2003

سلسلة
المطالعة
المفيدة



دار اليمامة للنشر والتوزيع - تونس -



الثمن : 1,100 دت

ISBN : 9973 - 24 - 303 - x